الحياة النسكية في لبنان

محاضرة لحضرة المتوري بطرس غالب

٣ (تابع)

ما اجمل ان يصرف احدنا ربع ساعة في محادثة هؤلاء الحبساء عبيد الله ! على وجوههم انعكاس سذاجة قلوبهم وطهارة نفوسهم . وفي صحيفة نظرهم الرائق رسم الجهد الباطني الذي يعانونه كل يوم تغلباً على انفسهم ، وقمعاً لتمرّد الجسد ليُرَدَّ عن شهواته الزائغة بصرامة التأديب ويُخضع لمشيئة الروح.

ولا ينبغي ان يستغرق العمل اليدوي سوى بضع ساعات من النهار. واكثر ما يشتغلون به تربية الكرمة وغيرها من الشجر المثمر ، غير انهم لا يذوقون العنب ولا التين ولا الخوخ ولا التفاح ولا اللوز ، وان كان ذلك من حاصلات بستانهم وبعرق جبينهم.

وهم يوزّعون ساعات يومهم على الصورة التالية : يقوم الجميع من نومه نصف الليل ليكون اسبقَ الخلائق الى تسبيح الخالق في الصباح . ثم يمضي الى المعبد ليزور القربان الاقدس ، ويصلي فرض الليل . ثم يغوص في لجة الصلاة العقلية ، ويغلب ان يكون راكعاً ، واحياناً منتصباً على قدميه . وفي كلا الحالين صالباً ذراعيه . ثم يتلو صلاة الصباح . ثم يقرّب ذبيحة القدّاس نحو الساعة الخامسة . ولا يملك اللسان تعبيراً عن حرارة عبادة شربل في شكره بعد القدّاس . وبعد ان يتلو اول سبحة وردية ، ويتبعها بقراءة روحية ، يشتغل مدة في الارض . ثم يعود الى قلايته ، فيراجع فصولاً من اللاهوت النظري والادبي ، حتى اذا استوفى ما يكون قد رسمه لنفسه ، يستأنف العمل اليدوي . وفي ساعة الظهر يتلو السواعي القانونية. ثم يعود الى الشغل المتعب ، الذي يوقظ شهوة الاكل ريثما يجيئه الطعام من الدير. غير انه يقهر تلك الشهوة ، فلا يأكل الّا قدراً يسيراً من طعام تافهٍ قليل التغذية . امّا ساعات المساء فيصرفها بتلاوة صلاة المساء ، ثم الوردية ، فالقراءة الروحية ، مع قليل من الشغل في البستان. وبعد ذلك صلاة الستار ، فالصلاة العقلية ، فتفتيش الضمير ؛

فالنوم ، ولا يتجاوز اربع ساعات او خمساً في الكثير . وفي هذه المدة القصيرة يضطجع ، والمسح عليه ، إمّا على خشبة او على شوك ؛ مسنداً رأسه الى جذع شجرة ذي عُقد ما لم يستعض عنها بحزمة حزون يابس او بحزمة شوك .

وليس مأذوناً لكل احد بالدخول الى قلاية الحبيس . حزتُ هذا الاذن مرةً ، فرأيتُ اربعة جدران سوّدها دخان الحطب الذي يحرق للتدفئة في ايام البرد القارس ؛ وارض القلاية عارية حتى من الحصير . في احدى الزوايا خابية فيها تينٌ يابس ولوزٌ . وفي زاوية اخرى دنّ خمر تحسبه كوزًا لجودته . والى جانب الدن جرّة فيها عسل شهيّ . ولا يسبق الى ذهنكم ان الحبيس يذوق شيئاً من تلك المأكولات ، بل هي عنده للزائرين . وهو يكتفي ان يزيد في اجره بحرمان نفسه ثمار براعته وتعبه .

وكان شربل يرعى هذه القوانين بكل تدقيق ولا يكتفي بها . ينام في ساعة متأخرة ، وينهض في منتصف الليل ، فينطلق الى المعبد ليحيي الربّ يسوع الساكن في هيكل زينته الفقر كقلاية الحبيس . فيصرف في حضرته ساعات يذوق فيها من سعادة التأمل ما يعجز عن وصفه القلم . فاذا انتقل الى المذبح لاقامة القداس الالهي انبعث نورٌ من وجهه الهزيل ، وتجلّت على هيئته وحركاته الرصانة والوقار ، وتوشح جلالاً وعظمة لا يدركها العالم ، واخذت طهارته الملائكية تنعكس في عينيه النقيتين . فليس قدّاسه الّا اختطاف ونجوى . وحين كان السيد المسيح بقوة كلام التقديس يهبط على ذلك المذبح الحقير الرطب ، كان شربل يذهل عن الوقت . امّا الزوّار الذين يسعدهم الحظ بسماع قداسه ، فكانوا يظنون ان الحبيس القديس قد أُنعم عليه برؤية الربّ يسوع ، لكثرة ما كان يتألق على وجهه من البهجة والحبور .

ولا ريب ان شربل ارتقى في سلّم الفضائل الى مستوى آباء البريّة العظام ، وقد كان للطاعة في عينه منزلة عالية ، فمن كلامه المأثور : يجب على الحبيس ان يكون كالعصا في يد الاعمى ؛ فانها تطاوع يد صاحبها حيثما وجّه بها بلا ممانعة ولا حجاج . عرف ان فضيلة الطاعة تخوّل افعالنا استحقاقاً جديداً ، فلم يكن ليأتي عملاً ما لم يؤمَر به ؛ ومتى امر بشيء بدر لاتمامه بدون تردّد ولا

ابطاء ، واذا اخذ في عمل لا ينفكّ عنه حتى يؤمر بتركه او بمباشرة غيره.

وقد وقع مرات لرفيقه ان يتركه وعمله ، ولا يدعوه لتناول الطعام في حينه فكان شربل يستمرّ على الصلوة ، او على عزق الارض ، او ينقي الكرمة ويجمع الحصى ويقتلع الحجارة الغليظة ، حتى يمرّ بخاطر رفيقه ان شربل المسكين لم يبرح صائماً.

على ان الطاعة العمياء وحفظ السكوت والحياة الشاقة لم تقدر ان تنتزع من شربل ما تحلّى به من دماثة الاخلاق وبشاشة الوجه ؛ ولا ان تثلم حدّ عقله المرهف وذهنه المتوقد . ان القداسة لا تكسب صاحبها شراسة ولا عبوسة وجه ، بل تقرّبه من الله المانح سرور القلب ، والموحي الحنان والمحبة.

وها انا ذاكر لكم بعض اخبار تريكم ان ذلك الناسك لم تكن تنقصه النكتة ، وانما لم يكن يظهرها الّا في ما قلّ وندر :

عهد اليه رئيس الدير بان يقدس للشركاء المزارعين ، فنبي في احد الآحاد ان ينبههم الى ان عيد القربان يقع في الخميس التالي ، فاتى الرئيس يذكره وانصرف . فلما اتمّ شربل القداس التفت الى الحاضرين وقال لهم : « يا اخوتي المباركين ، يوم الخميس القادم عيد القربان الاقدس بطالة في مقامه. » فدهش السامعون لعلمهم ان عيد القربان الاقدس بطالة عند جميع الموارنة . وابلغ بعضهم صورة هذا التنبيه الغريبة الى الرئيس ، فاستدعى شربل ووبّخه . فركع شربل امام رئيسه وقال له : اغفر لي يا ابي من اجل المسيح . اني ظننت ان عيد القربان ليس بطالة هنا. فدهش الرئيس من قوله وقال : لماذا يا ابانا شربل ! قال : بما ان ابوّتك تشغل الشركاء الاحد والعيد مساعدة للدير (عونات) فحسبت انك فاعل ذلك في عيد القربان الاقدس ايضاً . ففهم الرئيس مراد شربل ولم يتبس بكلمة.

وكان مرةً يقدّس ، فسمع اناساً يحلفون ويسبّون في ساحة الكنيسة . فلمّا انتهى القداس خرج الى الساحة فاذا الذي كان يسبّ ويضجّ رجل من شركاء الدير ، قد اخذ منه الغضب مأخذه فاصبح لا يعي ما يقول . فقال له بهدوء : ماذا جرى لك يا ابني ؟ قال : أيكون الرهبان سرّاقة ؟ قد وضعتُ

عصاي في زاوية الكنيسة ثم اتيت اطلبها فاذا هي مسروقة . قال الجيس :لا تدنْ قريبك دينونة باطلة. واشار الى جرن من حجر في ساحة الكنيسة يوازي وزنه قنطاراً وقال : انظر الى هذا الجرن انه في هذا الموضع من اكثر من مئة سنة ولم يسرقه احدٌ . وقد سنحت للرهبان فرصة سرقته مراراً ولم يسرقوه . فضحك الرجل حتى استغرب وانطلق في سبيله وفُضَّ المشكل.

ومن لطائف الاب شربل ان كاهناً من رتبة خوري اسقفي كان مولعاً بالملابس الحسنة والزينة الظاهرة مما يدلّ على انه نازعٌ الى الترَف ، وقد قيل انه لم يكن طيّب السمعة لتغطرسه وزهوه ، بل كان معجباً بنفسه وببعض وظائف قُلّدها اكسبته خشونة اللفظ ، وارتفاع الصوت عندما يحدّث الآخرين . اتى يوماً الدير متبرجاً مصفف الشعر متزيناً بكل حليه من خاتم ذهبيّ في اصبعه ، وصليب بسلسلة من ذهب على صدره ، وفروة ناعمة غالية الثمن شاملة جسمه من الكتفين الى الركبتين ، وفي الجملة في بزّة امير متصلّف لا في ثياب اكليريكي متواضع . وفي اثناء تحدّثه الى الرئيس ، علم ان الرهبان الحدثين يصنعون خبزاً في الفرن وشربل معهم . فاحبّ ان يراهم على هذه الحال فاخذه الرئيس الى الفرن ، ولم يخلع عنه فروته الثمينة مع ان الطقس كان حارًّا والنار شديدة في الفرن . واذ كان لا بد من كلام يقوله للرهبان الشبان لئلا يقال انه ابكم ، فتح فاه وقال:ما اسعدكم ايها الرهبان!.فانكم في اديارکم بمعتصم من الخطيئة حصين . فاجابه شربل على الفور : « ليس حضرتك باقل سعادة منّا من هذا الوجه . أو هل يمكن للخطيئة ان تجد منفذاً الى قلبك من خلال هذه الفروة النفيسة السميكة !» فمضى الخوري الاسقفي ، ولم يذكر التاريخ ان وخزة شربل نفذت الى قلبه من خلال الفروة السميكة !!!

لا تتوهموا مما قلته ان شربل كان على شيء من سوء النية والنزوع الى المزح لاجل المزح . فالحقيقة ان حياته كانت موجزاً لحياة حبساء كل العصور ، فبعد ان هجر عائلته بنية ان لا يعود يراها الّا في السماء ، وترك لاخوته حصته من الارث ، حبس نفسه اولًا في دير حصين ، ثم في محبسة معرّضة لجميع التقلبات الجوية على ذروة جبل يقع النظر من فوقه على مشاهد بديعة تأخذ بمجامع

القلب. غير ان شربل لم يكن ليتمتع بها ناظريه ، بل تقفى في ذلك إثر سلفه زابينا الذي عاقب نفسه بان لا يرسل نظره ، على سبيل الفضول ، الى شيء من المنظورات ، فصرف حياته لا يرفع نظره الى سقف قلايته.

يا للسيرة الملائكية العجيبة! لقد انصرف شربل الى الصلاة العقلية واللفظية. لا يخرج عنهما الّا الى الاشغال المفروضة من القانون . ولشدّ ما اجهد النفس في قهر جسده بالصوم ، والسهر الطويل ، وخشونة المسح ، والسلاسل الحديدية ذات الاشواك التي وجدت في قلايته بعد موته. وقيّد جميع اعماله باوامر الطاعة يأتيها على وفاق ما تشتهيه ؛ قانعاً من اكلته اليومية ببعض الحبوب ، مبالغاً في رعاية قانون الصمت ، يربط شعر رأسه الطويل بخيط من حديد ويجمعه محجوباً بقلنسوته ، ولم يأذن لنفسه البتة ان تذوق شيئاً من العنب وثمر البستان ممّا كان يُعنى بغرسه وتربيته . عاش ١٨ سنة معتزلاً الناس متحداً بالله . وما زال على هذه الحال حتى عشية عيد الميلاد سنة ١٨٩٨. وقد شرف الله قبرهُ بآيات كثيرة فذاع صيت ذلك الذي كان مدة حياته يطلب التواري وراء حجاب العزلة.

لقد كان حبيساً قلّ نظراؤه في الحبساء . الّا انه يوم ينادي به الحبر الاعظم طوباوياً سيشتهي الناس ان يعرفوا حقيقة السيرة النسكية ، ويزداد اعتبارهم لها لعلها تستعيد نماءها القديم في لبنان ، وما هي اليوم بالقريبة من الزوال. والمسيحيون الذين يكونون قد بنوا حكمهم في الحبساء الذين لا تنطبق حياتهم على مبادئ العالم الخادعة ، سوف يقدرون سيرتهم العجيبة قدرها ، يوم يرون الجالس على عرش بطرس يأمر بان يُكرّم على المذابح ذلك الحبيس المسكين الذي كان يعدّه اقرانه أبله.

وسيذكر اللبنانيون ان القديسين والحبساء هم الأولى بنوا في لبنان حصن الايمان والاستقلال ، وهم الذين سيحرسونه بقوّة صلاتهم وتضحياتهم . لقد كان لهؤلاء الرجال القديسين غاية سُميا منها يستمدّون القوة والثبات في معترك الحياة وروح التضحية ، وهم ادركوا معنى الحرية الحقيقية الصحيح ، اعني حرية ابناء الله. ولئن صحّ القول ان الاساقفة اوجدوا فرنسة ، فليصحّ كذلك القطعُ بان للحبساء والرهبان الحظ الاكبر في تكوين لبنان الكاثوليكي المستقلّ !